رأي القدس

بيت حانون واطفالها الشهداء

■ ودعت مدينة بيت حانون، شمال قطاع غزة، كوكبة شهدائها الذين سقطوا ضحايا المجزرة الاسرائيلية، اكبرهم كان في السبعين من عمره، واصغرهم طفلة رضيعة لم تتجاوز العام واراها والدها الثرى ودموعه تنهمر كالمطر لتبلل قبرها الندي.

عشرات الآلاف هبوا من مختلف مدن القطاع وقراه للمشاركة في موكب التشييع متعهدين جميعا، والغضب مرتسم على وجوههم، بالانتقام لارواح الشهداء، وهؤلاء ان قالوا فعلوا، مثلما علمتنا تجارب تاريخ المقاومة الفلسطينية الحافل بالتجارب والعبر.

الامهات كن يتحدثن بفخر عن اطفالهن الشهداء، والزوجات بزهو عن ازواجهن، والبنات عن آبائهن او اشقائهن فالعزاء واحد، والألم واحد، والعدو واحد.

احدى الامهات قالت ان اطفالها الشهداء ارتسمت الابتسامة على شفاههم، ورائحتهم كانت مثل رائحة المسك والعنبر، كأنهم سعداء بالذهاب الى الجنة، دار البقاء بسرعة وعبر بوابة الشهادة الاكثر طهارة ونقاء وايمانا.

ايهود اولمرت رئيس الوزراء الاسرائيلي ادعى ان القصف المدفعي الذي ادى الى وقوع هذه المجزرة كان خللا تقنيا، وان تحقيقا بدأ لمعرفة الاسباب، واعرب عن اسفه لسقوط هذا العدد من الضحايا، وكأن هذه المجزرة هي الاولى من نوعها، وكأنه لم يتفاخر قبل اسبوعين في الكنيست بقتل 300 فلسطيني، منذ اسر الجندي الاسرائيلي جلعاد شاليط قبل ثلاثة اشهر.

اسرائيل ترتكب المجازر، ثم تدعي البراءة، وتضلل العالم بتشكيل لجان التحقيق، هكذا فعلت عندما اغتالت الطفل محمد الدرة، وهكذا قالت عندما ارتكبت مجزرة اسرة الطفلة هدى غالية على شاطىء قطاع غزة.

تشكيل لجان تحقيق خدعة مارستها الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة لامتصاص غضب الرأي العام العالمي، ولكنها خدعة لم تعد تنطلي على أحد، فها هم ابناء واحفاد ضحايا الهولوكوست يرتكبون مجازرهم بطريقة لا تقل بشاعة، وها هم يظهرون احقاداً عنصرية لا تقل عن بشاعة احقاد النازيين.

فمن يضم عنصرياً نازياً استئصالياً مثل ليبرمان الى حكومته، ويسلمه منصب نائب رئيس الوزراء، وهو يعرف نواياه الدموية مسبقاً، لن يتورع عن اعطاء الاوامر لجيشه بارتكاب المجازر في حق ابرياء قطاع غزة والضفة الغربية، فالنية مبيتة، وتحويل غزة الى شيشان اخرى اصبح هدفا استراتيجيا لحكومة اولمرت منذ قررت فرش سجادها الاحمر لضم ليبرمان الى صفوفها.

ميزان القوى لم يكن يوما لصالح الشعوب التي تقاوم الاحتلال لارضها، ووضع المقاومة الفلسطينية لم يكن ولن يكون استثناء، ولكن الشعوب الحية الكريمة لا تهرب من اقدارها، ولا تفرط بحقوقها، والا لبقيت معظم الكرة الارضية حتى هذه اللحظة تحت الاستعمار الاوروبي.

اولمرت قد يكون اضاف بعض القوة الى شخصيته المهزوزة، وبعض الدعم لمعنوياته المنهارة بسبب هزيمته وجيشه في جنوب لبنان، بارتكابه مثل هذه المجازر في بيت حانون، ولكنه قطعا فتح على نفسه ومستوطنيه «عش الدبابير» ولن يكون غريبا، او مفاجئا، اذا ما شاهدنا قنابل بشرية تنفجر قريبا في تل ابيب والقدس، والمزيد من الصواريخ تنهال على سديروت وعسقلان واسدود وربما ما هو ابعد منها.

قد تكون هذه الصواريخ بدائية، او «مواسير» كما وصفها الرئيس محمود عباس ساخراً ومستنكراً، ولكن هل وجد الشعب الفلسطيني صواريخ «كروز» او «توماهوك» او «كاتيوشا» ولم يستخدمها؟

اليوم «مواسير» وغدا ربما تتحول الى صواريخ حقيقية تضاعف من حالة الرعب في صفوف المستوطنين، فالمهم ان الارادة في المقاومة موجودة مثلما اكد كل المتحدثين باسمها، ومجازر بيت حانون وشهداؤها الاطفال تزيدها قوة وصلابة.

بيت حانون في «الشرق الأوسط الجديد»: كاشف البربرية المعاصرة

صبحي حديدي *

■ تردد أنّ وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس اتصلت بالرئيس الفلسطيني محمود عباس وأعربت له عن «الأسف الشديد» إزاء المجزرة الإسرائيلية الأخيرة في بيت حانون، وبهذا فإنها لم تذهب أبعد مما ذهب رئيسها جورج بوش، حين اعتبر أنّ «الولايات المتحدة تشعر بحزن عميق للإصابات والأرواح التي أزهقت في غزة». وبهذا، كان تصريحها أشدّ خجلاً تجاه الدولة العبرية (وبالتالي أشدّ بذاءة تجاه الضحايا الفلسطينيين الأبرياء)، رغم أنها ـ وهي سيدة الدبلوماسية الأمريكية، ودكتورة العلوم السياسية ذات اللسان الذرب ـ كانت الأجدر باعتماد جرعة أثقل من بلاغة النفاق السياسي.

من جانب آخر، وضمن معطيات مشهد إقليمي وكوني أوسع نطاقاً وأكثر ازدحاماً، كان الأجدر بالوزيرة رايس أن تشعر بما هو أبعد فداحةً من محض الأسف، ليس بسبب بربرية إرهاب الدولة الإسرائيلي تحديداً أو حصراً، بل بسبب هذا «الشرق الأوسط الجديد» الذي أعلنت مخاض ولادته عشية بربرية إسرائيلية سابقة، ضدّ لبنان البلد والشعب، وها هو لا يبدو كمَن يلد مخلوقات سوية على أيّ نحو، بل يقذف بوقائع شائهة مشوّهة أين منها فئران متدافعة من قلب جبل تمخض! صحيح أنّ رايس قد تكون بين الأكثر ابتهاجاً برحيل زميلها وخصمها اللدود وزير الدفاع دونالد رمسفيلد، إلا أنّ هذا الرحيل هو من نوع الخبر الصغير السعيد الذي ينبثق عن سلسلة أخبار تعيسة مكربة محزنة: من نوع هزيمة الجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي لمجلسيّ النوّاب والشيوخ (إذا تأكدت نتائج فرز الأصوات في ولاية فرجينيا)، أو نجاح محكمة عراقية كاريكاتورية في إصدار سلسلة أحكام بالإعدام على طغاة العهد البائد، مقابل فشل الحكومات العراقيات المتعاقبة تحت الاحتلال الأمريكي في حلّ المشكلات اليومية المعيشية والأمنية لسواد العراقيين.

غير أنّ مجازر بيت حانون هي الكاشف الأبرز، لأنه ببساطة الأشد وحشية ودموية وبربرية، لهذا «الشرق الأوسط الجديد» الذي بشّرت به رايس، ثم بلعت لسانها عن أيّ وكلّ إفصاح عن طبيعته، قبل أن تتكفّل الوقائع بتعرية نقائصه وكشف سوءاته ومضاعفة عواقبه. وليس هذا لأنّ الدولة العبرية لم تمارس مجازر مماثلة طيلة العقود التي أعقبت إنشاء إسرائيل، بل لأسباب نقضية ونقائضية في الواقع، على رأسها أنّ السلوك الإسرائيلي في فلسطين، والأمريكي في العراق وكلّ شبر من هذا «الشرق الأوسط الجديد»، يسير عكس التبشير ويسفر عن كلّ ما هو مضاد للنظرية ونأسف لركائزها.

ويكفي أن يجد الرئيس الفلسطيني نفسه مضطراً لوصف المجازر الإسرائيلية بـ«الحقيرة»، تماماً كما وصف عملية استشهادية فلسطينية قبل أسابيع معدودات، أو أن يضطرّ الرئيس المصري حسني مبارك إلى التصريح بأنّ إعدام صدّام حسين لن يهزّ الاستقرار في العراق (وهذه عجيبة، كأنّ البلد مستقرّ آمن مطمئن)! وحده، بل في الشرق الأوسط بأسره. نحن هنا في صفّ «المعتدلين» من زعامات العرب، فما بالك بما قال أو سيقول الأمين العام لـ«حزب الله»، الشيخ حسن نصر الله، أو رئيس المكتب السياسي لحركة «حماس»، خالد مشعل، أو الرئيس الإيراني أحمدي نجاد...

ويُقال عادة إنّ السياسات الإسرائيلية تأخذ أشكالاً دائرية أو حلزونية، خلافاً لمعظم السياسات العربية ذات الأشكال الإنكسارية والإنتقال السريع من الشيء إلى نقيضه. وأضيق دوائر الحلزون، هذه الأيام، هي ارتداد الضمير اليهودي الجمْعي إلى إثقال النفس بالكابوس، واستدعاء ذاكرة التوراة لكي تطمس السطوح كلها: السياسية والأمنية والاقتصادية والإيديولوجية. في أيام كهذه يستذكر السواد الأعظم من الاسرائيليين مقولة غولدا مائير عن «الفلسطيني اللامرئي»، وتقفز يهودا والسامرة من تضاريس الأرض إلى تلافيف الدماغ. ها هي بيت إيل (أي: رام الله)! حيث اضطجع يعقوب ورأى في الحلم سلّماً منصوباً إلى السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليه. وهنا قال له الرب: «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك»، ثم أمره: «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل يكون اسمك إسرائيل». وها هي حبرون (الخليل)! حيث هُزم الكنعانيون ومُسح داود ملكاً على بيت يهوذا مرتين. وها هي يوراشاليم (القدس)! حيث مملكة داود التي لم تكن تتجاوز العشرين أكرة، مقابل 72,000 أكرة تحتلها الدولة العبرية اليوم!

أين بيت حانون، إذاً؟ إنها في قلب الدائرة الدامية الدموية الدامسة العفنة التي تجعل من سواد اليهود الإسرائيليين آلة فتك وآلة كابوس وآلة وجود في آن معاً، ضدّ فلسطيني يزداد زجّه في صورة الآدمي اللامرئي الذي لا يُرى، إذا بان واستبان، إلا في صورة الإرهابي القاتل الإسلامي المتشدد الحمساوي، الذي انفكّ عن كلّ عقل واعتدال فلم يعد حتى... فتحاوياً (تخيلوا مفارقة هذه الأزمان، حين يصبح الفلسطيني الفتحاوي فلسطينياً معتدلاً)! وبيت حانون لا تقبع اليوم في مستقرّ آخر سوى هذا الانفلات الفاشي البربري لدولة لم تعد تحفظ من ذاكرة الهولوكوست سوى إعادة إنتاجه بين حين وآخر، فتستوي غزة مع بيروت وبيت حانون مع بنت جبيل.

وفي مطلع هذا الأسبوع أقرّ الروائي والكاتب الإسرائيلي دافيد غروسمان (الذي، للتذكير، فقد ابنه أوري، 20 سنة، الضابط الاحتياط في سلاح المدرعات، أواخر أيام العدوان الإسرائيلي على لبنان) أنّ الأزمة التي تعيشها الدولة العبرية «أشدّ عمقاً مما كنّا نخشى في أيّ يوم، وفي كلّ منحى». كان غروسمان يخطب في ذكرى اغتيال رئيس الوزراء الأسبق إسحق رابين، وهذا في حدّ ذاته دليل على وطنيته الإسرائيلية، ولكنه مع ذلك احتاج إلى تذكير مستمعيه بأنه «يحمل لهذه الأرض محبّة هائلة وطاغية ومركبة»، وأنه علماني التفكير ولكنه مؤمن بأنّ قيام دولة إسرائيل كان «معجزة من نوع ما، سياسية ووطنية وإنسانية، وقعت لنا كأمّة». وكان غروسمان بحاجة إلى تشديد كهذا، مشبوب غنائي واقعي ـ ميتافيزيقي في آن معاً، لكي يبلغ سلسلة خلاصات كارثية من الطراز التالي:

ـ «هذا وطن جعل كارثتي الشخصية بمثابة «ميثاق دموي»»؛

ـ «طيلة سنوات كثيرة، لم تفرّط إسرائيل في دماء أبنائها فحسب، بل فرّطت في المعجزة ذاتها، وفي فرص بناء دولة ديمقراطية ناجحة، تلتزم بالقِيَم اليهودية والكونية»؛

ـ «كيف حلّ بنا هذا؟ متى فقدنا حتى الأمل في أننا سنكون ذات يوم قادرين على تأمين حياة مختلفة أفضل؟ وكيف حدث أننا نواصل التفرّج على حدة، كأننا نُؤمَن مغناطيسياً بفعل الجنون والوقاحة والعنف والعنصرية التي حاقت بوطننا؟»؛

ـ «أحد أكثر نتائج الحرب الأخيرة صعوبة هو الإحساس المتعاظم بأنه لا يوجد ملك في إسرائيل، وأنّ قيادتنا جوفاء، قيادتنا السياسية والعسكرية جوفاء. لست أتحدّث عن أخطاء إدارة الحرب، أو انهيار الجبهة الداخلية، أو الفساد واسع النطاق. إنني أتحدث عن حقيقة أنّ الناس الذين يقودون إسرائيل اليوم عاجزون عن ربط الإسرائيليين بهويتهم، وبتلك الساحة والذاكرة التي تمنحنا الأمل والقوّة، وتضفي بعض المعنى على صراعنا اليائس الواهن من أجل البقاء»...

يهودي آخر، هو المؤرّخ الإسرائيلي يارون إزراحي، كان قد تابع روحية الرثاء ذاتها وأحصى الأثمان الباهظة لذلك الإنتقال العجيب الذي شهدته فكرة الدولة اليهودية: من المعجزة بحدّ السيف، إلى ما بعد الملحمة، ولكن... بالرصاص المطاطي! وفي كتابه «رصاص مطاطي: القوّة والضمير في إسرائيل الحديثة»، الذي صدر بالإنكليزية، اعتبر إزراحي أن استخدام الرصاص المطاطي في قمع الانتفاضة كان نقلة نوعية في الرواية الصهيونية الكلاسيكية، الأسطورية والملحمية والتربوية، وكان عتبة تدشّن «انقطاع خيط الرواية الكبرى» التي لمّت شمل أسرته اليهودية طيلة خمسة أجيال، منذ أواخر القرن التاسع عشر حين غادر أجداده أوكرانيا إلى فلسطين، وحتى أواخر القرن العشرين حين أدرك أنه يصارع قراراً مؤلماً بتجنيب ابنه آلام حلم صهيوني فادح الأثمان.

ويكتب إزراحي: «في تلك الليلة من شهر كانون الثاني (يناير) عام 1988، حين شاهدت على شاشة التلفزة جندياً إسرائيلياً شاباً يجثو على ركبة واحدة ليسدد بندقيته إلى طفل فلسطيني لا يحمل سوى الحجارة، انتابني إحساس حادّ لا سابق له بالصدوع العميقة التي أخذت تتشكل داخل ملحمة عودتنا وتحريرنا في هذه الأرض، ولقد شعرت بفداحة الخسران، وبالتناقض الشديد في قوّة الرواية التي أدامت الحلم الصهيوني». وهكذا فإنّ إزراحي يقرّ، مثل غروسمان، بأن محاولة اسرائيل مصالحة أزمة الضمير مع فحشاء استخدام القوّة لن تسفر عماً هو أقلّ من هوّة فاغرة بين أجيال الجدّ والأب والابن، ولسوف تكون «معركة مرويات» قابلة للتنازع الداخلي كلما وحيثما اقتضى الحال تخليص النفس الاسرائيلية من، أو تحصينها بوسيلة، «الملحمة الكبرى» و«الحلم الصهيوني» و«تاريخ الآخر».

لم نقرأ، في حدود ما قرأنا، كيف أبصر إزراحي آلاف المشاهد البربرية التي أعقبت جثوّ الجندي الإسرائيلي على ركبة واحدة لتسديد بندقيته إلى طفل فلسطيني لا يحمل سوى الحجارة، وكيف حملق في مشهد اغتيال محمد الدرّة مثلاً، وأية مرئية كانت ستفيده في وصف مجازر طوباس وبني نعيم والشجاعية ورمل غزة وجنين، لكي لا نتحدّث عن قانا 1 وقانا 2؟ وهل يمكن لفئة قليلة من أمثال غروسمان وإزراحي أن يروا ذلك الجوهر الخبيث الذي يكمن في خلفية ما يجري من مجازر، أي استمرار الإبادة الجماعية المنظمة والتصفية العرقية للفلسطينيين، كما يساجل مؤرّخ إسرائيلي مثل إيلان بابيه وآخر بريطاني مثل جوف سايمونز؟

ليس هذا رأي واحد من بطاركة اليسار الإسرائيلي، شمعون بيريس، الذي استشاط غضباً وأعلن أنّ كرامته الشخصية طُعنت في الصميم حين سمع مَن يقول إنّ الدولة العبرية تسعى إلى تصفية الفلسطينيين. «نحن لسنا دولة مافيا تستخدم هذا النوع من الممارسات». مَن نحن، إذاً؟ «الدولة الوحيدة في العالم التي تواجه انتحاريين لا يمكن وقفهم بواسطة شرطة أو جنود ما داموا مستعدين للموت»، تابع حامل جائزة نوبل للسلام. وليس غريباً أن تصدر هذه التصريحات النارية عن أقطاب اليسار قبل أقطاب اليمين، فهذه ـ كما ينبغي أن نتذكر دائماً ـ هي أطوار انصهار كلّ تيّارات وأحزاب وألوان وأطياف وضمائر أبناء الدولة العبرية، السواد الأعظم منهم عملياً، ما خلا قلّة قليلة محدودة منفردة معزولة من طراز غروسمان وإزراحي. هذه أيّام الوحدة الوطنية القصوى، والإئتلاف الشامل، والتعاضد الأعمى: ضدّ الفلسطينيين أولاً وجوهرياً، ثمّ ضدّ كلّ مَن تسوّل له نفسه اتهام الدولة العبرية بارتكاب ما ترتكبه المافيا، حتى إذا كان هذا وزير خارجية الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا.

هذا هو بعض السبب في أنّ قلب السيدة رايس (بافتراض وجوده في موقعه الطبيعي من بدنها، بالمعنى الإنساني وليس بالمعنى التشريحي) قد يتفطّر حزناً على رحيل خصمها اللدود رمسفيلد، وقد تتقطع نياط القلب ذاته على استمرار غياب الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليت، ولكن من المحال أن تهتزّ وزيرة الخارجية لمشاهد مجازر بيت حانون المتعاقبة. ألا يكفي أنها اتصلت بحليف بلدها، محمود عباس، وأبدت له أسفها الشخصي؟ وهل يعقل أن تكون مشاعرها أكثر حزناً من مشاعر رئيسها سيّد البيت الأبيض؟

أو... أن تحزن أمريكية أكثر مما حزن ويحزن ملوك وأمراء ورؤساء العالم العربي!

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

المرجعيات الدينية في العراق: عنصر استقرار أم توتر؟

هارون محمد *

■ عندما يعترف آية الله بشير نجفي، وهو للعلم ليس نجفياً ولا عراقياً، وإنما من الشيعة الباكستانيين الذين وفدوا على العراق واستوطنوا فيه، بانه لولا دعوة المرجعية الشيعية الى تأييد الائتلاف الشيعي في الانتخابات الأخيرة، فإن الأمور كانت ستصبح بيد من أسماهم بـ(أعداء العراق) وهو يقصد السنة العرب والبعثيين وكذلك النخب الشيعية التي ترفض هيمنة التنظيمات والميليشيات المرتبطة بايران، فان هذا الاعتراف الذي ورد في بيان وزعه مكتبه، الثلاثاء الماضي، بعنوان (تقييم الوضع الحالي في العراق) يؤكد ان المرجعية الشيعية في النجف تتدخل في صميم الشؤون الداخلية العراقية بطريقة فجة وطائفية، رغم ان أقطاب المرجعية الثلاثة (السيستاني واسحق فياضي ونجفي) هم من أصول اجنبية، ايرانية وافغانية وباكستانية، ولكنهم يحشرون أنفسهم في قضايا سياسية تفرق المجتمع العراقي وتزرع الفتنة في صفوفه، مع ان وظائفهم الدينية تحتم عليهم ان يكونوا رجال اصلاح واخوة واتحاد، بعيداً عن التمذهب والتحزب.

وقبل بشير الباكستاني، كان احمد الجلبي قد كشف النقاب في ندوة صحافية عقدها في لندن الاسبوع الماضي، عن ان السيستاني هو الذي طلب من ابراهيم الجعفري سحب ترشيحه لرئاسة الحكومة الحالية، بعد ان سمع المرجع بان الرئيس بوش لن يرتح مزاجه لابراهيم وطالب باستبداله، وان السيستاني إضطر الى اتخاذ هذا الامر شعوراً منه بان وضع الشيعة في العراق بات مهدداً، إذا استمر ابراهيم في تشبثه بالترشيح، فإن هذا الحديث الذي يأتي من عراب الاحتلال ومؤسس البيت الشيعي، اضافة اخرى تعزز الادلة على تدخلات المرجعية السافرة في الشأن العراقي وسعيها المحموم لتكريس الاحتقان الطائفي وتأجيج الاحتراب الداخلي.

ولا نريد هنا عرض مراسلات الحاكم الامريكي السابق السفير بول بريمر مع السيستاني التي كان يحملها الموفودون بين المنطقة الخضراء ببغداد والنجف، فهي مثبتة في كتابه (عامي في العراق) وتوضح حجم التعاون والتنسيق بين المرجعية وممثل الاحتلال، وتكشف في الوقت نفسه عن كيفية احتواء الامريكان لمراجع الشيعة الاجانب، بينما لم يجدوا مرجعاً شيعياً عراقياً وعربياً واحدا يقبل التعاون معهم سياسياً، حتى محمد الصدر في الكاظمية فانه رغم الدعوات والولائم التي أقامها لبريمر فانه لم يجرؤ على اقامة تعاون سياسي مع الاحتلال خشية نفور مقلديه ومريديه منه، واكتفى بتقديم الكباب والبرياني والفسنجون له.. والأخيرة أكلة ايرانية الاصل، حتى ان العراقيين إذا ارادوا ان يسخروا من احد هؤلاء أطلقوا عليه تسمية (ملا فسنجوني) تهكماً.

وتعاون فقهاء الشيعه مع الاحتلالات الاجنبية للعراق ليس جديداً، ولعل حكاية آل طاوس وكانوا يتولون رئاسة الشيعة ببغداد والحلة والنجف وتعاونهم مع هولاكو عندما احتل العراق في عام 1258 للميلاد من أبرز صور الخنوع والموالاة والتبعية للمحتل الاجنبي، ومنها ان مجد الدين بن طاوس قاد وفداً شيعياً والتقى هولاكو خارج بغداد قبل احتلالها وقدم الطاعة له وشجعه على (فتح) سيدة المدن العربية والاسلامية، الأمر الذي أدهش هولاكو الذي سأله كيف أقدمتم على مكاتبتي والحضور عندي قبل ان تعلموا بما ينتهي اليه امري وأمر صاحبكم ـ يقصد الخليفة المستعصم بالله ـ وكيف تأمنون ان صالحني ورحلت عنه؟

فردوا عليه اقدمنا على الاجتماع بك لأنا روينا عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام انه وصف لنا ذلك، ووجدنا الصفات فيكم، رجوناك فقصدناك، وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يراجع كتاب (كشف اليقين) لمؤلفه الفقيه الشيعي الحسن بن مطهر، ويروي ابن الطقطقي في كتابه (الفخري في الاداب السلطانية) عن عميل آخر من آل طاوس هو رضي الدين علي بن طاوس الذي استدعاه هولاكو بعد احتلال بغداد مع جمع من العلماء واستفتاهم ايهم افضل، السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر، فاحجم العلماء، فتقدم رضي الدين وتناول الفتيا ـ الفتوى ـ ووضع خطه فيها، بمعنى توقيعه بتفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر.

وينقل هذا الطاوس في كتابه (اقبال الاعمال) في تعضيد رواية ابن الفوطي، فيقول: لم نزل في حمى السلامة الآلهية وتصديق ما عرفناه من الوعود النبوية الى أن استدعاني ملك الأرض ـ يعني هولاكو ـ الى دركاته المعظمة جزاه الله بالمجازات المكرمة، وولاني على العلويين والعلماء والزهاد، لاحظوا كيف وصف المحتل الاجنبي بملك الارض ومساواته بملك السماء جل وعلا، وقد سبق كل هذا، الدور الخياني المعروف الذي لعبه وزير المستعصم بالله، العميل الشيعي ابن العلقمي.

وعندما احتل الصفويون العراق أول مرة في عهد الشاه اسماعيل عام 910 هجرية، الذي استقبل بحفاوة وترحيب من فقهاء الشيعة، صعد نقيبهم ويدعى محمد حسين الحسني الشهير بـ(كمونة) المسجد الجامع ببغداد، وخطب للشاه الخطبة الاثني عشرية، المعروفة في التراث الشيعي، ودعا له، ولم يكتف الحسني ـ الصحيح او المزعوم ـ بخدمة الشاه الصفوي والعمالة له في العراق، وإنما ذهب معه الى تبريز عاصمة الدولة الصفوية وشارك في معركة (جالديران) التي انتصر فيها السلطان العثماني على الصفويين وقتل فيها ابن كمونة شر قتلة، كما جاء في كتاب (الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق) للعلامة الدكتور كامل مصطفى الشيبي.

ومن يطلع على مسيرة قادة المرجعية الشيعية في العراق، في تاريخه المعاصر، منذ انشاء دولته الحديثة في عشرينات القرن الماضي، وجميعهم من الايرانيين، يلاحظ انهم يطبقون مبدأ (فقه المقاطعة) ضد الحكومات العراقية المتعاقبة، بينما يمارسون ما يسمى بـ(فقه الطاعة) للحكم الايراني، سواء كان بهلوياً أم خمينياً، ويرافق ذلك اعتماد نظرية (التقية) وهي مفهوم انتهازي يقوم على (إظهر.. خلاف ما تبطن) وقد حرمها اية الله خميني في عام 1963 خلال خلافه مع شاه ايران محمد رضا، ولكنها ما تزال سائدة اكثر من السابق، ومن يستعرض اسماء مراجع النجف الكبار من اصحاب القرار والفتاوى، يصدم من اسمائهم وألقابهم الفارسية والهندية والاذرية الصارخة (خراساني، اصفهاني، شيرازي، نائيني، يزدي، قمي، سبزواري، شاهرودي، ميلاني، بروجردي، طباطبائي، خوئي، سيستاني، فيازي، مدرسي) في الوقت الذي يتم التضييق على العلماء العراقيين والعرب، وتطلق عليهم شتى النعوت الجارحة والاتهامات الباطلة.

وذكرنا في مناسبة سابقة كيف صار تقليداً شاهنشاهياً في تنصيب المراجع في النجف، عندما تجاوز البهلوي شاه ايران السابق الايات الايرانيين لتبوؤ المرجعية الشيعية عقب وفاة المرجع الاعلى حسين بروجردي عام 1960 وعلى رأسهم شريعة مداري وكلبيكاني وخونساري، وأسند المرجعيه الى محسن طباطبائي الحكيم في النجف، وقد فسرت هذه الخطوة بانها اهانة للحوزة الشيعية في ايران، كما ينقل عن خميني، كاتب سيرته محمد حسن رجبي في كتابه (الحياة السياسية للامام الخميني).

ولم يتوقف مراجع النجف وكربلاء الايرانيون عن معارضة الحكومات العراقية سواء في العهد الملكي او الجمهوري، والتشنيع عليها واعتبارها ظالمة، ومواصلة التأييد للسلطات الايرانية القاجارية والبهلوية والخمينية والخامنئية، بل انهم مارسوا أساليب التسقيط والترهيب ضد علماء وسادة ينتمون الى أسر وبيوتات دينية عراقية وعربية بارزة ولامعة مثل آل الخالصي والجزائري وكاشف الغطاء والبغدادي والصدر، والصاق تهم باطلة بهم، والقصد واضح يتمثل في منع وصول أحدهم الى رئاسة المرجعية رغم علميتهم وأعلميتهم الدينية، وما تعرض له المرحوم اية الله محمد صادق الصدر من هجمات على شخصه وتشكيك في مرجعيته عبر اصدارات ومنشورات وتصريحات من باقر الحكيم وحاشيته الايرانية موثقة بالتواريخ، رغم قصر الفترة التي أمضاها الصدر الثاني كما يسمى في سدة المرجعية.

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالدراسة والتقييم، تتمثل في أن خمسة من مؤسسي حزب الدعوة الشيعي الذي يرأس السلطة في العراق تحت ظل الاحتلال من اصل سبعة، هم من الايرانيين، كما تؤكد ذلك أدبيات الحزب وهم: مهدي آصفي وعلي كوراني وكاظم حائري ومرتضى عسكري ومهدي طباطبائي، اما الاثنان الآخران فهما فقيه الحزب المرحوم محمد باقر الصدر الذي انسحب من الحزب مبكراً، والثاني عبدالصاحب دخيل الذي اعدم في عام 1978، ولعل الإطلاع على مؤلفات الباحث الشيعي المعروف عادل رؤوف (عراق بلا قيادة، والصدر بين دكتاتوريتين، والصدر.. مرجعيه الميدان) والمطبوعات الصادرة عن المركز العراقي للاعلام والدراسات في دمشق تغني الدارسين والمتابعين والباحثين في هذا الشأن.

حتى المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق ـ كما يسمى ـ فقد ترأسه عند تشكيله الاول نهاية عام 1982 ايراني فارسي هو: محمود هاشمي ويشغل منذ سنوات رئيس القضاة في طهران وجميع اعضائه من الايرانيين، وتروى حكاية حقيقية بهذا الصدد مفادها، ان آية الله خميني، استقبل تشكيلة المجلس عقب اعلانها بفترة وجيزة، وعند اللقاء تفرس خميني في وجوه رئيس واعضاء المجلس الاعلى، وقال مخاطباً اياهم بسخرية لاذعة: أنتم مجلس أعلى للثورة الاسلامية في العراق أم في ايران؟!

إن التجارب المريرة التي تركها مراجع الشيعة الايرانيون في العراق، في ارتباطاتهم مع الاجنبي، وتنفيذهم مخططاته وأجندته وتآمرهم على العراق، بلداً وشعباً وسيادة ووحدة وثقافة وتاريخاً، تفرض على العراقيين وخصوصاً الشيعة العرب وقفة جادة في رفض تقليدهم، والامتناع عن دفع (الخمس) لهم، وكشف انحرافاتهم وفسادهم وعمالتهم، وبالتالي الى عزلهم وتسفيرهم الى بلدانهم الأصلية، لأن إستمرار وجودهم في العراق وتعظيم شأنهم، سيجران المصائب على الشيعة انفسهم مستقبلاً، وصدق القول العربي المأثور: لا تأمن للدغة عقرب.. ولا لعجمي إذا استعرب، وهناك مثل شعبي عراقي شائع منذ أزمنة قديمة يقول: اذا كسرت عظم العجمي، يطلع (.....)!.

* كاتب وصحافي عراقي مقيم في لندن

صدام يكسب الانتخابات الأمريكية

د. عبدالوهاب الافندي

(1)

توقيت النطق بالحكم على الرئيس العراقي السابق صدام حسين بحيث يأتي في وقت حساس بالنسبة للانتخابات النصفية للكونغرس الأمريكي وحكام عدد من الولايات الأمريكية مثل الحلقة الأخيرة في استراتيجية فاشلة ارتدت على من صمموها. هذه الاستراتيجية قامت على فهم مقلوب للأمور من ناحية، وعلى انتهازية قبيحة من ناحية أخرى.

(2)

من السذاجة والاستغفال أن يردد البعض بأن القضاء العراقي والحكومة العراقية مستقلان، وأن توقيت النطق بالحكم لا علاقة له بوضع بوش اليائس قبيل الانتخابات. وتصبح هذه الدعاوى أضعف حين يصدح بها بوش وحليفه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في نفس النفس الذي يصرحان فيه بالترحيب بالحكم الذي اعتبراه فتحاً مبيناً. ولكن السذاجة الأكبر هي ما اعتقده بوش وأنصاره بأن هذه المسرحية الهزلية يمكن أن تجوز على الشعب الأمريكي (أو أي شعب آخر) فينخدع بها.

(3)

لقد كانت مأساة كبيرة للرئيس بوش أنه ربط مصيره بصراعه شبه الشخصي مع الرئيس العراقي السابق. فمنذ وقت مبكر في رئاسته جعل بوش إطاحة الرئيس العراقي وإعادة تشكيل العراق بعده هي التحدي الأكبر لعهده. وأدى هذا بدوره لتركيز غير مبرر على دور صدام وشخصه. وهكذا أصبحت إطاحة تمثاله (في غيابه هو) عنوان النصر في العراق! ثم جاء اعتقاله ليعلن عنه كفتح مبين آخر، ثم أخيراً الحكم بإعدامه. وهكذا أصبحت منازلة صدام وأشباحه شغل بوش الشاغل، وأيضاً شغل بلير وبقية الحلفاء.

(4)

كنت قد علقت حتى قبل بدء الحرب بأن بوش وبلير وضعا نفسيهما في مقارنة سالبة في حقهما مع صدام، بحيث أصبح هناك ما يشبه الإجماع على أن صدام كان هو المظلوم والمعتدى عليه. وقد علقت حينها بأن من يخسر معركة العلاقات العامة في معركة خصمه فيها صدام حسين لا بد أن يكون من أكثر الناس خيبة. ولكن الذي حدث أن بوش وبلير خسرا المعركة مع صدام قبل أن تبدأ، ولم يبق لهما سوى التبجح بغطرسة القوة. وبعد أن مرغت المقاومة العراقية أنوفهما في التراب، خسرا هذا التبجح أيضاً.

(5)

الخاسر الأكبر في هذه المعركة هو العراق وشعبه. لقد جعل المحافظون الجدد من العراق حقل تجارب لمخططاتهم لتركيع العالم، وخسروا أبشع خسارة. ولكن كما حدث في أفغانستان التي أفشلت التوسعية السوفيتية، فإن الثمن الذي دفعه العراقيون كان فادحاً، لأن ثمن التصدي للقوى العظمى من قبل شعب صغير قليل الموارد، ويفتقد إلى الناصر والمتضامن، هو ثمن فادح. لقد تم تدمير العراق وإهدار مئات آلاف الأرواح. ولكن الثمن الأكبر هو تدمير النسيج الاجتماعي في العراق وتمزيق لحمة التضامن بين مكونات شعبه، وهو تمزيق قد يصعب رتقه.

(6)

لقد بدا واضحاً أن من راهنوا على الاحتلال قد خسروا الآن. وإذا كان ذلك الرهان يفتقد إلى الأرضية الأخلاقية في الأساس، فإنه كان أيضاً مسؤولاً عن التعنت غير المبرر الذي أبداه البعض في التعامل مع إخوانهم العراقيين. ولعله من المأمول ألا يبادل الآخرون إخوانهم تعنتاً بتعنت الآن وأن يسارع كل العراقيين إلى طي صفحة الماضي المؤلم، وأن يبادروا إلى بناء دولتهم على أساس التكافؤ ومبدأ لا غالب ولا مغلوب.

(7)

إذا كان التعنت ممن استخدموا بنادق الاحتلال لقهر إخوانهم وفرض إرادتهم عليهم لم يكن مبرراً، فإن من الخطأ كذلك أن يجعل الطرف الآخر من معركة صدام المفتعلة هي معركة مستقبل العراق. إن نظام صدام قد يبدو للبعض اليوم للبعض عصراً ذهبياً في ضوء ما خلفه، ولكن هذا لا يمنع أن ذلك كان عهداً مظلماً لا يشرف العراق. وإذا حصر السنة معركتهم في هذا الإطار الضيق فإنهم سيصبحون من الخاسرين خسارة من راهن على الاحتلال.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عم